7

الطريق إلى التواصل الاجتماعي

كما اعتبر الطفل «نبتة تتفتح من الداخل» أو «مادة أولية» تصقل من الخارج، كذلك أُلقي الضوء على الأسرة من زوايا تشبيهية. كأن يقال إنها «جنة في عالم قاس»، أو ملاذ من محن وبلايا عالم المنافسة[1]. ففكرة أن «بيت الإنسان هو قلعته» ترسخ صورة الأسرة «الملاذ» التي رسمها أيضاً بعض علماء الاجتماع الأمريكيين، مثل تالكوت بارسونز Talcott Parsons[2].

وهناك صورة ثانية مناقضة لا تعطي الأسرة منظر الملاذ بقدر ما تصورها «سجناً» يعطي نزلاءه الأسوأ بدل الأفضل. والأشخاص المسجونون في حياة أسرية يغدون مرضى عاطفياً أو ممزقين اجتماعياً. في الدول الاستبدادية والاشتراكية ينظر إلى الأسرة كعدو للدولة، حيث الأطفال ينشأون كوميونياً (تنشئة اشتراكية) كسبيل إلى تخفيف تأثيرات الأسرة الموهنة. وحتى في المجتمعات الديموقراطية كمجتمعنا، كثيراً ما هوجمت الأسرة

من قبل علماء اجتماع أمثال الطبيب النفسي آر. دي. لينغ R. D. Laing، كونها تربة ترعى العصابيين والهواسيين[3]. وقد هوجمت الأسرة كونها «momism» ترعى «الإباحية» أو لأنها تكبل الأطفال «بقيود مزدوجة» (كما الأم التي تقول «أعطني قبلة» في حين توحي ملامحها أنها تعتبر الطفل كائناً مزعجاً).

إلاّ أن كل أسرة تعتبر، بشكل أو بآخر، جنة وسجناً في آن. فالآباء والأبناء يرتد كلاهما إلى الظل الآمن للأسرة في أوقات الشدة والشدائد. فعندما يُصاب أحد الوالدين أو أحد الأطفال بمرض خطير، مثلاً، تشكل الأسرة مركز الدعم الرئيسي له. على الرغم من ذلك فإن كل عضو من أعضاء العائلة قد يغضب في وقت ما من مسؤوليات الأسرة التي تتداخل مع مخططاته ونشاطاته الشخصية. أما فيما يتعلق بالأطفال فإن الأسرة تكون دائماً أكثر من مجرد جنة أو سجن، إنها مدرسة في العلاقات الإنسانية يتعلم الأطفال فيها العيش في المجتمع. يناقش هذا الفصل وظيفة الأسرة في التدريب على العلاقات الإنسانية، وتأهيل الأطفال اجتماعياً، ويفسر كيف تشجع الشدة الأبوين على استعجال وحث الخطو التعليمي.

كيف تؤهل الأسرة الأطفال اجتماعياً؟ أعطى علماء النفس والاجتماع أربعة أجوبة في الأقل لهذا السؤال. يقول منظرو «التعلم الاجتماعي» إن الأطفال يتعلمون كثيراً «بتقليد» تصرفات الكبار. فإذا كان الأبوان مؤهلين اجتماعياً بشكل جيد، وملتزمين بالقانون، ويحترمان السلطة، فإن الأطفال سيتبعون خطاهما. أما

إذا كان الأبوان يتجاوزان القانون ويتحايلان عليه فإن أطفالهما سيتبعان النهج نفسه. وقد أعرب منظرو التعلم الاجتماعي مثل ألبرت باندورا Albert Bandura من جامعة ستانفورد عن قلقهم الشديد حيال العنف التلفزيوني لما له من تأثير محتمل على الأطفال الذين قد يتخذون من العدوان «مثلاً يُحتذى»[4].

وهناك طرح آخر للتكيف الاجتماعي هو «التكيف السلوكي» المشتق من عمل بي. إف. سكينر B. F. Skinner وتلامذته. من وجهة النظر هذه يأتي التكيف الاجتماعي ضمن أطر الثواب والعقاب. فالآباء الذين يكافئون أطفالهم لتعلمهم القوانين والانصياع لها ويحجبون المكافآت عندما تخرق القوانين، يصبح أطفالهم قادرين على التكيف مع النظام الاجتماعي الأوسع. بالمقابل فإن الآباء الذين لا يكافئون التصرف الذي يحترم القانون، ويكافئون كسر القانون يصبح لديهم أطفالاً يتحدون الأعراف الاجتماعية[5].

وهناك طريقة أخرى تشرح التكيف الاجتماعي من قبل الآباء هي «الإدراك الاجتماعي»، وهي نظرية يطرحها عمل جان بياجيه. في وجهة النظر هذه تتفاوت القوانين في تعقيدها المنطقي كما أن بعض القوانين أسهل فهماً من سواها[6]. والآباء الذين يكيفون تعليمهم حسب مستوى فهم الطفل يحظون بفرصة أكبر للنجاح من أولئك الذين يهملون صعوبة القانون. يصب في هذا الطرح، الذي اقترحه بعض الباحثين، أن التطور العقلي يسرع التدريب بما يُمكن الأطفال من تعلم القوانين الصعبة مبكراً.

النظرية الأخيرة هي نظرية المحلل النفسي فرويد[7]. تقترح لغة التحليل النفسي أن الطفل يتكيف اجتماعياً بواسطة التماثل وإضفاء الذاتية. فالفتى مثلاً يرى نفسه مماثلاً لأبيه ويأخذ بتمثل قيمه ومعتقداته وأفكاره المسبقة. كما تجد الفتاة نفسها في صورة أمها وتأخذ بتقمص قيمها ومعتقداتها وأفكارها المسبقة. لم يناقش فرويد عمليات التطابق والتذوت بإسهاب، إلا أنه كان يرمي إلى شيء يتجاوز حدود الاقتباس البسيط إلى عملية اندماج موسعة تشكل جزءاً من التماثل العاطفي.

تتضمن جميع نظريات المعرفة الاجتماعية هذه قدراً من الحقيقة. فالكائنات البشرية معقدة، ونحن بجميع الاحتمالات نتعلم الأشياء بأكثر من طريقة واحدة. فالأطفال يتعلمون أحياناً بالاقتداء. وليس عليك سوى أن تستمع إلى طفل في الحضانة وهو يلعب مقلداً الكبار ويقول «إذا فعلت هذا ثانية سأكسر يدك!» عندها تدرك بأن الطفل يحاكي لغة الكبار. وكذلك، فإن الثواب والعقاب يجدي أحياناً ولكن دائماً بأساليب أكثر تعقيداً مما نحب أن نفترض. كما أن المكافآت الرمزية، كالربت على الرأس أو الكلمة الحلوة أو اللفتة المحبة، أكثر وقعاً من الأشياء الحسية في ترسيخ التصرف.

إلاّ أن مستوى الفهم الواعي لدى الطفل يحدد تعلمه للقوانين، كما جاء في الفصل السابق. وفي الوقت الذي لم تحظ بعض الجهود التي بذلت لتسريع فهم الأطفال الثقافي بنجاح يذكر، فإن الأغلبية العظمى من الدراسات تؤكد أن جهود

تسريع التطور الثقافي ليس لها تأثير دائم. وأخيراً نحن نعرف أن الأطفال يتعلمون أيضاً بالتماثل والتذوت، لأنهم كمراهقين وراشدين قد يكشفون عن قيم ومعتقدات وأفكار مسبقة لم يكشفوا شيئاً منها عندما كانوا أطفالاً ولكن يمكن بسهولة إرجاعها إلى تأثير الوالدين في الصغر.

أما نموذجي الشخصي «المكثف» للتكيف الاجتماعي فيضم جميع النظريات الآنفة الذكر. فالتكيف الاجتماعي ينطلق دائماً من افتراض ضمني، غير محكي عادة، وتوقعات دالة غير واعية من جانب الأطفال ووالديهم. وتتفاوت طبيعة التوقعات حسب عمر الطفل، وحساسية الوالدين، من هنا كان لابد للنموذج أن يأخذ بعد «الإدراك الاجتماعي» في تربية الطفل في الاعتبار.

كثيراً ما يرتبط تحقيق العقود بثواب وعقاب محدد يطبقه الوالدان. وإذا آتى الثواب والعقاب أكلهما، فذلك ليس بسبب السرور أو الألم الذي يخلفانه وإنما لأنهما يرمزان إلى العقود المعنية. فإذا اعتقد الطفل مثلاً أنه فعل شيئاً يستحق الثواب عليه (كأن ينظف غرفته)، ولم يأت ذلك الثواب، فإنه ينزعج. لكن انزعاجه يزداد لمعرفته أن تصرفه الجيد لم يلحظه أحد - وفي هذا ما يخل بالعقد - أكثر من عدم حصوله على مكافأة محددة كالنقود أو أي ميزة معينة. من هنا كانت أهمية الثواب والعقاب بالنسبة للأطفال ليس بسبب قيمته الحقيقية (الفورية) فحسب وإنما لأهميته التعاقدية.

كما أن التصرف الاقتباسي جزء من النظرية التعاقدية طالما تعاقد الأبوان مع أطفالهما بطريقة مضمونة ومختبرة. فجميع الآباء يذكرون أنهم قالوا ذات مرة شيئاً للطفل بلهجة وكلمات تعيد إلى أذهانهم كلمات سمعوها عندما كانوا أطفالاً. وبهذا فإن الاقتباس يضيف إلى نوعية ومضمون التعامل التعاقدي بين الآباء والأبناء.

أخيراً يمكن القول إن التطابق والتذوت، كما يوحي فرويد، ربما شكلا الآلية التي تجعل الأطفال يبرمون عقوداً يلتزمون بها بشكل شخصي. ولكن في الكتابات المعاصرة قد يأخذ التطابق معنى «التعلق» وهو نوع من الرباط العاطفي بين الوالد والولد. كما يمكن أن ينظر إلى التذوت اليوم كنوع من «الاستخلاص الانعكاسي» حيث يستخلص الطفل طبيعة العقود من سلسلة من تصرفات الأبوين. لا يستخلص الطفل مجموعة من التصرفات المحددة بقدر ما يستخلص قاعدة عامة أو مجموعة من القوانين التي ترعى مستويات من التصرف.

وكما رأينا في الفصل السابق، فإن الأطفال لا يتعلمون القواعد، كقواعد ألعاب التسلية، قبل أن يبلغوا سن العمليات الصعبة. إلا أن ذلك لا يعني أن الأطفال الصغار لا يستطيعون تعلم القوانين وإنما أنهم لا يستطيعون تعلمها بالتوجيه اللفظي. فحتى الأطفال الصغار يستطيعون تعلم القواعد باستخلاصها من تصرفات الكبار. ويحتمل أن الأطفال يتعلمون قواعد اللغة وقواعد أخرى كثيرة ترعى تصرفهم في الأوضاع الاجتماعية

المختلفة من خلال الاستخلاص الانعكاسي. ويستطيع الأطفال اكتساب هذه القوانين من خلال مشاهدتها أكثر مما يكتسبونها من خلال شرحها. كما يستطيع الأطفال الصغار تعلم القوانين المتضمنة في تصرفات أبويهم على الرغم من أنهم لا يستطيعون تعلم قوانين مشابهة تملى عليهم بالقول.

العقود بين الآباء والأبناء

من منظار التطور، تبدو الحقيقة نسبية من خلال كونها نتاجاً مشتركاً بين نشاط الفرد الثقافي والمواد التي تقدمها البيئة. ففي الواقع الملموس مثلاً يعتمد فهم الطفل لفكرة أن عدد العناصر يبقى واحداً على الرغم من ترتيبها الفيزيائي على الخبرة بالأشياء إضافة إلى المحاكمة. وهذا صحيح لأن التعداد أكثر من مجرد محاكمة تتعلق بالإدراك الحسي. فمن المستحيل مثلاً أن تحدد عدد قطع الحلوى الجيلاتينية في وعاء زجاجي كبير مليء تماماً.

وكذلك الأمر بالنسبة للوقائع الاجتماعية على الرغم من أنها أكثر تعقيداً لأن الإيماءات المنبهة كتعبير الوجه وطبقة الصوت تعتبر أكثر دقة. ولابد للأطفال، بما لديهم من مقدرة ذهنية ومدارك اجتماعية، من بناء حقيقة اجتماعية تمكنهم من البقاء داخل الأسرة وخارجها على حد سواء.

إلاّ أن هناك إدراكاً يختلف فيه الواقع الاجتماعي عن الواقع الحسي. ففي البداية في الأقل يكون اكتشاف الطفل

للواقع الملموس فورياً ينجم مباشرة عن التعامل مع الأشياء المحسوسة والحوادث. الا أن اكتشاف الطفل للواقع الاجتماعي، غالباً ما يتوسط به الأبوان والأشخاص الذين يعتنون بالطفل. والوساطة تعني أن يعمل الأبوان والمربون لمساعدة الطفل في تكوين إدراك للواقع الاجتماعي. فالطفل الذي يبتسم فيبتسمون له يكتسب وعياً اجتماعياً مختلفاً عن طفل يلقى رداً مختلفاً. وعالم المادة، بشكل سنة، لا يعطي الطفل ردوداً متفاوتة كما يفعل العالم الاجتماعي.

(كما أن الأطفال يكيفون ردود فعل الأبوين وواقعهما، مما يجعل التكيف الاجتماعي عملية أبعد ما تكون عن أحادية الجانب). وبهذا فإن خبرات الوليد الاجتماعية، منذ لحظاته الأولى في الحياة تخضع لوساطة أشخاص معينين من بيئته.

وحقيقة أن الواقع الاجتماعي يتوسط به مربون معينون لا تعني أن تكوين ذلك الوعي نزوي ومتقلب بشكل كامل. فالانتظام في تفسير بنية الواقع الاجتماعي راسخ في الآمال الضمنية التي يحملها كل من الآباء والأبناء، هذا الانتظام يتبلور «حقائق جماعية» تحمل سمات عامة متشابهة من أسرة إلى أسرة. والحقائق الجماعية التي يعاد تشكلها مع كل طفل هي ما أسميه «عقوداً بين الآباء والأبناء».

التعاقد عملية معقدة تتم على مستويات سيكولوجية كثيرة في الوقت نفسه. فالأطفال الذين يدعمون بشكل مفرط من أجل

إنجاز معين قد يدفعون إلى الاعتقاد أن كل الدعم موقوف على ذلك الإنجاز أو على مستوى معين من النجاح. اعرف فتاة كانت تبدع في رسم الخيول، وتمتدح كثيرا لذلك، لدرجة أنها كانت تخشى أن ترسم أي شيء آخر. كما أن الأطفال قد يعتقدون أيضاً أن الأبوين يتوقعان منهم اكثر مما يستطيعون أداءه. حتى أن صبياً كنت أتابعه شعر بارتياح كبير إذ اكتشف أن والديه لم يكونا يتوقعان منه أن يحصل على أعلى العلامات في سجله المدرسي.

بالمقابل، إذا فشل الأبوان في دعم الطفل في إنجاز محدد، فإنه قد يشعر أنه لم يحقق نجاحاً يذكر، وأنه لم يبذل الجهد اللازم ـ أو أنه كان مخطئاً. وقد انضم صبي مراهق من معارفي إلى عصبة لأنه كان يشعر أنه عاجز عن «بذل جهد يكفي» لإرضاء والديه. وقد قدمت العصبة له الدعم والقبول. العقود، إذاً، خاصةً التي تعقد بين الأشخاص، قد تقرأ وتفهم بشكل خاطىء من قبل الآباء والأبناء. وخرق تلك العقود، سواء بشكل فعلي أو متخيل، يولد الشدة لدى الأطفال والكبار. وسنرى فيما بعد أن الضغط من أجل تسريع النمو غالباً ما يراه الأطفال انتهاكاً لعقد أساسي ـ هو الحق في النمو بالسرعة والإيقاع الشخصي ـ ومن هناك كان اعتباره عامل شدة.

الحرية ـ المسؤولية

يعتبر عقد الحرية ـ المسؤولية ركناً أساسياً في كل ما يتعلق

بالأبوة. فالآباء، إذ يدركون العجز الأولي للوليد، يتوقعون أن يصبح الطفل، عندما ينمو، قادراً على حمل مسؤولية تصرفه الشخصي. لكن لابد للآباء من توخي الحساسية في رصد مستوى نمو الطفل الثقافي والاجتماعي والعاطفي ليتمكنوا من إتاحة الفرص والحريات الملائمة كي يمارس الطفل مسؤولياته.

وهكذا، عندما ينضج الطفل، تعاد كتابة عقد الحرية ـ المسؤولية مرة إثر مرة. والواقع أن الآباء والأبناء يشكلون حقائقهم الجماعية ويعيدون تشكيلها. وإذا لم يحدث ذلك فإن قدراً لا يُستهان به من الأذى قد يطرأ. ولكن عندما يكون هناك توافق معقول بين الآمال التي يعقدها الآباء على الأبناء وبين أدائهم من جهة، وبين آمال الطفل وأداء والديه من جهة أخرى، فإن مقدار الشدة في التعامل داخل الأسرة يبقى قليلاً نسبياً. ويطرأ تجاوز العقود، مولداً الشدة، عندما يحجم الوالدان عن مكافأة المسؤولية بالحرية أو عندما يطالب الأطفال بالحرية دون إظهار تحمل للمسؤولية.

وتُظهر الأمثلة التالية آلية عمل عقد الحرية ـ المسؤولية. عندما يكون الطفل وليداً، لا يتوقع الوالدان منه ما ينبي عن إحساس بالمسؤولية. ويعطونه حريات قليلة. يخضع الوليد لمراقبة دقيقة. لكن الوالدين لديهما بعض التوقعات التي تتكشف بمجرد أن يرغب الوليد بأداء أشياء بنفسه. كأن يرغب بإطعام نفسه، وقد يسمح الوالدان له بذلك طالما دخل شيء من الطعام في فمه.

في الطفولة المبكرة، يصبح الطفل قادراً على التنقل ويرغب أن تُترك له حرية الحركة التي ربما لم يكن مستعداً لها بعد. قد يرغب الطفل الصغير مثلاً برفع كأس أو صحن زجاجي يشعر والداه أنه حتماً سيلقيه. ومن الأهمية بمكان أن يكون الوالد قادراً على تقدير مهارة الطفل بدقة، مما يؤدي دائماً إلى قليل من التجربة والخطأ وبضعة صحون مكسرة (يمكن استبدال الصحون الزجاجية أو الخزفية بأخرى من البلاستيك لتخفيف آثار التجربة والخطأ). وطالما أدرك الطفل أنه سيمنح فرصاً أخرى فيما بعد، فإن حجب حريته إثر فشل تجاربه قد يساعده في تقدير حدود إمكانياته.

بعد ولادة الطفل، وأثناء طفولته المبكرة، يكون عقد الوالد، الطفل سارياً بكل معنى الكلمة عادة. فالوالد يقرر بشأن السماح بحرية معينة، وليس للطفل من ملاذ سوى الاستجابة العاطفية لإملاء الوالد. ولكن في مرحلة متقدمة من الطفولة، وبفضل استخدام اللغة وقوى المحاكمة التي يتمتع بها الطفل في سن المدرسة، تصبح الترتيبات التعاقدية أكثر ملاءمة. فالأطفال غالباً ما يرفضون رأياً أحادي الجانب من قبل أحد الوالدين ويدافعون بحماسة ملحوظة عن حقهم بحريات معينة، كالسهر وتناول الطعام المحبب للأطفال على الرغم من عدم احتوائه قيمة غذائية تذكر.

عند هذا المفصل تصبح أساليب التربية واضحة. ويستطيع الفرد أن يحدد الأنماط النموذجية من التربية ـ الديموقراطية، أو

السلطوية أو الحرة التي لا تمارس أي تدخل ـ فيما يتعلق بمعالجتهم للعقود. الأبوان الديموقراطيان يستمعان إلى وجهة نظر الطفل، ويوضحان وجهة نظرهما، ويتخذان قراراً يأخذ موقف الطفل في الاعتبار. أما الأبوان المستبدان فلا يعيران أي اهتمام لمطالبة الشخص الفتي بحرية معينة ويستمران في اتخاذ قرارات من جانب واحد. فيما يجد الأبوان اللذان يعتمدان الأسلوب الحر نقاش الطفل مقنعاً، وربما يمنحانه الحرية دون أن يطالباه بتحمل أي مسؤولية بالمقابل.

في المراهقة تصل عقود الآباء ـ الأبناء مستويات جديدة من التعقيد. فتصبح العقود مجردة أو عامة وتندمج بالمبادئ الأخلاقية إلى جانب قوانين المجتمع الأوسع. فاستخدام سيارة الأسرة مثلاً أمر يخضع جزئياً لفهم الأبوين لمسؤولية الناشئ، كما يخضع لعمره وحيازته رخصة سوق. أما تدخين الماريغوانا وتناول الخمور فتخضع أيضاً لبعض التنظيم من قبل الأبوين والمجتمع. في فترة المراهقة يبدو أن عقد الحرية ـ المسؤولية يصبح عقداً بين الطفل والمجتمع، إضافة إلى كونه عقداً بين الآباء والأبناء. وبهذا فإن عقد الحرية ـ المسؤولية يحضر الناشئ ليصبح عضواً مسؤولاً في المجموعة الأكبر.

كما حدث، مثلاً، عندما أراد ابني وهو في الخامسة عشرة القيام برحلة بالدراجة إلى مونتريال مع بعض أصدقائه. جلسنا معاً وراجعنا الخطط التي وضعتها المجموعة. اكتشفت أنهم قد رسموا طريقهم بعناية وحددوا أماكن مبيتهم كل ليلة. كما

خططوا للاتصال بانتظام مع أهاليهم. وكان لديهم إمدادات غذائية كافية، ومواد إسعافية، وإطارات إضافية للرحلة. وأخيراً كان الشبان الذين يخططون للرحلة في مرحلة الدراسة الثانوية الأخيرة وبدوا لي شباناً حذرين ومسؤولين. عند ذلك أعطيت ابني الإذن (والمال!) للقيام بالرحلة. وقام الأولاد بالرحلة دون أي حوادث وأمضوا وقتاً مبهجاً حقاً.

يصبح عقد الحرية ـ المسؤولية إبان المراهقة معقداً بطريقة أخرى: فسلطة الأبوين على حرية المراهق محدودة أكثر بكثير مما هي على حرية الطفل. إذ يمكن السيطرة على الأطفال عادة بكلمات الآباء. إلا أن الأمر ليس كذلك مع المراهقين. يستطيع الأبوان أن يطلبا من أبنائهما المراهقين الامتناع عن التدخين والخمرة والجنس، إلا أن طلبهما غالباً ما لا يكون له أثر يذكر على تصرف المراهق، خاصة إذا كان التعاقد الأبوي أثناء فترة الطفولة اعتباطيا أو متقطعاً. والناشئون الذين يدخلون مرحلة المراهقة دون إحساس واع بعقد الحرية ـ المسؤولية يحتمل أن يتمادوا في ممارسة حريات غير مأمونة النتائج (بالمفهوم الحقيقي للمسؤولية). اكثر من الأولاد الذين لديهم إحساس قوي بأن الحرية تكتسب بالتصرف المسؤول. وقد رأيت، في مهنتي، كثيراً من الناشئين يوقفون بسبب القيادة المتهورة أو المخمورة لأنهم لم يربوا بشكل جيد في مجال عقد الحرية ـ المسؤولية.

وكثيراً ما يخرق عقد الحرية ـ المسؤولية عندما يشجع الأطفال على النمو بسرعة أن يعطوا حرية ليسوا مستعدين لها

تماماً، كالبقاء في البيت بمفردهم. ما يحدث عندها هو أن الأطفال يكتسبون عادة التصرفات المسؤولة الضرورية للتكيف مع الحريات التي قدمت لهم. لكن اكتساب هذه التصرفات المسؤولة قد يكون مدعاة شدة وقد يكون على حساب نشاطات أخرى ضرورية للنمو السوي، كاللعب والنشاطات المتخيلة.

الإنجاز والدعم

نوع ثان من الواقعية التي تبنى بين الآباء والأبناء يتضمن الإنجاز والدعم. يحمل الآباء عادة توقعات معينة يتطلعون إليها في إنجازات أطفالهم، يدعمونها معرفياً وعاطفياً ومادياً. هذه العقود يجب إعادة كتابتها إذ ينضج الأولاد وتكبر الإنجازات التي يقدرون عليها. والآباء أيضاً يجب أن يوسعوا أنواع الدعم التي يقدمونها لأبنائهم.

قد تساعد بضعة أمثلة في تمتين تطور هذا العقد. عندما يكون الطفل وليداً يتوقع أبواه أن يلمسا لديه إنجازات حسي حركية أساسية، يدعمانها عاطفياً. وعندما يبدأ الوليد برفع رأسه، أو الوقوف وراء حاجز سريره، أو يلفظ كلمة مفهومة، يتلقاها الأبوان بالعناق والتهليل وسواها من إشارات الموافقة المحبة. بهذه الطرق يتعلم الأطفال بسرعة أن الإنجاز، أو محاولة تحقيقه، تلقى استحساناً ومكافأة من الأبوين.

في السنوات قبل المدرسية، تترافق الإنجازات الحسي حركية بإنجازات رمزية، ويترافق الدعم المحب للأبوين

بمكافآت رمزية. فالأطفال الصغار لا يبدأون بالتحكم بأجسامهم فحسب وإنما يبدأون بالتحكم بلباسهم وطعامهم ومرحاضهم أيضاً. كما يبدأون بإتقان استخدام اللغة، والأبوان اللذان لا يستطيعان الصبر في انتظار تمكن طفلهما من اللغة لا يستطيعان انتظار تحكمه بحركته. إلى جانب الدعم العطوف للوليد يضيف الأبوان الدعم الرمزي في مرحلة ما قبل المدرسة - في عبارات مثل «أحسنت»، «جيد جداً»، أو «ما أجمل هذا».

تزداد إنجازات الطفل تميزاً إذ يدخل المدرسة. وتتجلى إنجازاته في مجالات ثلاث. المجال الأكاديمي، ومجال التعامل الشخصي، ومجال النشاط خارج المنهاج الدراسي. وخلاف إنجازات الطفل الوليد وإنجازات سنوات ما قبل المدرسة، تتخذ هذه الإنجازات بُعداً اجتماعياً يطال التعامل مع المعلمين والأنداد والراشدين الآخرين. في هذه المرحلة، لا يكون الأطفال مسؤولين بشكل كامل عن إنجازاتهم كما هم في سنوات طفولتهم المبكرة. ويستحيل على الوالدين تقدير هذا التفاعل وإدراك أن نجاح الطفل أو فشله في هذه المجالات ليس نتيجة عمله فحسب.

بالمقابل، يوسع الوالدان مدى وطبيعة الدعم الذي يقدمانه في هذه الفترة، فهناك مثلاً زيادة في كمية الدعم المادي إذ يقدم للطفل الثياب والاعتماد المالي للمدرسة والمال والمعدات للنشاطات الخارجة عن المنهاج. يظهر الأبوان اللذان ينتميان إلى الطبقة الوسطى دعمهما بتوصيل أطفالهما إلى منازل

الأصدقاء، والدروس، وما إليها. كما يبدأ الوالدان بإظهار الدعم بحضورهما نشاطات معينة، خاصة عندما يشارك الطفل في أداء تمثيلي أو في نشاط خارج المنهاج. وعندما تصبح إنجازات الأطفال اجتماعية أكثر فإنهم يتوقعون أن يصبح دعم الأبوين أكثر علانية.

يجب ألا نستخف بأهمية حضور الأبوين دعماً لإنجازات أطفالهما. فهو مؤشر واضح أن الأبوين يهتمان عندما يجدان متسعاً من الوقت ليشاهدا طفلهما يمثل، خاصة عندما يعرف الأطفال أن الأبوين لا يحضران من أجل متعتهما أو سرورهما. هذا الإدراك لحضور الوالدين صحيح أيضاً بالنسبة للأطفال ما قبل المدرسة على الرغم من أنه يتخذ شكلاً صامتاً. أذكر أني كنت أزور ابني في مدرسة الحضانة، بناءً على طلب معلمته، كي أتمكن من ملاحظة «طفل صعب المراس» في الصف.

وفيما أنا جالس أراقب، جلست مجموعة من الصبيان، بينهم ابني، في حلقة قربي. وكان بينهم الحوار التالي:

الطفل أ: أبي طبيب يكسب كثيراً من المال ولدينا حوض سباحة.

الطفل ب: والدي محامٍ يسافر إلى واشنطن ويتحدث مع الرئيس.

الطفل ج: أبي يملك شركة ولدينا طائرة خاصة بنا.

قال ابني (بكل ثقة): أبي هنا! ووجّه نحوي نظرة فخورة.

يجد الأطفال في الحضور العلني لوالديهم تعبيراً ظاهراً عن

العناية والتواصل أكبر بكثير من أي دعم مادي. وليس لأغلى هدية أن تعوض حضور الوالدين عيد ميلاد الطفل.

في المراهقة تصبح الإنجازات الأكاديمية والبيشخصية والخارجة عن المنهاج متوقعة، ويصبح الأبوان أكثر تحديداً في ما يتوقعانه من الطفل في هذه المجالات. فقد يتوقعان من المراهق أن يفلح في مجالات معينة، وربما لا يرضيان عن بعض صداقات المراهق، كما أن بعض النشاطات الخارجة عن المناهج قد لا تلقى استحساناً. في فترة المراهقة، ولأول مرة، قد لا يتفق الآباء والأبناء حول الإنجازات الأكثر قيمة والأكبر أهمية.

كما أن الناشئين، خاصة في الأسر التي تنتمي إلى الطبقة الوسطى كثيراً ما يقعون في شرك «تضخم الإنجاز». لهذا وضع تركيز كبير على الإنجاز الذي ينوء الناشئون بتحميله لبرامجهم: قد يكون الطفل يتابع دروس البيانو والباليه، ويلعب مع رابطة الكرة اللينة، ويتطوع بالعمل في أحد المشافي، ويتابع في الوقت نفسه دورة كاملة في المدرسة. ويضطر كثير من هؤلاء الناشئين إلى الاستعانة بدفتر للمواعيد لأن وقتهم مقسم بعناية. حتى أن الآباء الملتزمين والحريصين يجدون صعوبة في دعم جميع هذه النشاطات، وكثيراً ما تنشب نزاعات بين الآباء والأبناء حول «التخفيض».

وتحدث الزيادة في الإنجاز عندما يخطئ الطفل فهم دعم أبويه لإنجازاته. فعندما يفترض الناشئون أن الآباء لا يهتمون

سوى بإتقان الأبناء ما يفعلونه، أكثر من اهتمامهم بشخصياتهم ومن يكونون، تصبح الحاجة إلى الإنجاز ضرباً من الإدمان. يجب أن نجعل الأطفال يفهمون أن الدعم الحقيقي والمهم يمنح للإنجازات لأنها مفيدة للأطفال. عندها يدرك الأطفال أن ما يقومون به إنما هو لصالحهم وليس لمجرد إرضاء الأبوين. فعندما يشعر الأطفال أن الإنجاز شيء للوالدين وليس للذات، فإنهم إما أن يتوقفون أو ينطلقون في إنجازات مفرطة كي يضمنوا استمرار دعم الأبوين.

يبقى المراهق بحاجة إلى النوع نفسه من الدعم الذي كان يتطلبه حين كان طفلاً. ويرى في حضور والديه مسرحية أو حفلاً موسيقياً يشارك فيه دعماً له. فالمراهق يحتاج إلى دعم عاطفي، وعلى الرغم من كبر حجمه ونضجه الجسدي، فإنه ما زال يحتاج إلى الضم والعناق والربت (بعيداً عن أعين الآخرين طبعاً). فنحن لا نكبر أبداً على هذا النوع من الدعم. هذا الدعم العاطفي يشعر أن الوالد يدعم الطفل كشخص يشعر الوالد تجاهه بالحب والاحترام، وليس لمجرد ما استطاع الفتى أن يحققه.

الإخلاص والالتزام

حقيقة جماعية ثالثة يكونها الآباء والأبناء تتعلق بتوقعات ضمنية حول الالتزام والوفاء. فالآباء بشكل عام يتوقعون قدراً معيناً من الوفاء من أطفالهم مقابل الوقت والطاقة والجهد

والنفقات التي يتكبدها الآباء في تربية أبنائهم. وفي العقود الأخرى، لا بُد من إعادة بناء الحقائق إذ ينضج الأطفال والآباء. والحقيقة هي أن الآباء يجب أن يتوقعوا أنواعاً جديدة من الوفاء تنسجم مع تنامي إحساس الطفل بالذات وبالعالم.

وكما قلنا سابقاً فإن الأطفال الصغار يمضون في بناء عالم من الأشياء الدائمة التي تبقى موجودة بالنسبة إليهم حتى بعد أن تغيب عن حواسهم. في الوقت نفسه، يبدأ الوليد أيضاً ببناء تصور للذات كشيء يحتل حيزاً من الزمان والمكان. ويتوقع الآباء غريزياً أن أبناءهم، في طفولتهم، سيدينون لهم بالولاء كأشياء، ويظهرون تعلقاً بهم، ويخشون فراقهم، وهكذا.. والحقيقة أنه على الرغم من كل ما كتب عن الخوف من الانفصال كونه يشير إلى التعلق إلا أنه أيضاً تعبير عن الوفاء للأبوين. فالوليد الذي يرفض الاستجابة للغرباء يعطي أمه أو أبيه أو كليهما مؤشراً مهماً ومرضياً بوفائه لهما.

لدي ملاحظة شخصية سجلتها مؤخراً تساعد في تكبير هذه النقطة: أتت زوجة شابة قوية الشخصية بوليدها إلى مكاتبنا في الجامعة. اهتم الجميع، من سكرتيرات وسواهن من أعضاء الكلية الآخرين بالطفل، فعلقوا على شعره المجعد، وعينيه الزرقاوين، وهكذا. وسألت إحدى السكرتيرات إذا كان بإمكانها حمل الطفل، ووافقت الأم. ولكن عندما مدت المرأة الأخرى ذراعيها لتتلاقف الطفل، بدأ الطفل بالبكاء وتعلق بأمه، اعتذرت الأم إلا أنها في الوقت نفسه ضمت الطفل إليها أكثر، وقد علت

وجهها نظرة رضا خاصة لمعرفتها أن طفلها يعرف أنه طفلها هي. بالنسبة للأم ما من شك في أن ذلك كان تعبيراً من الطفل عن وفائه لها.

وإذ يدخل الوليد الطفولة المبكرة يبدأ ببناء عالم من الإشارات (صور تقليدية كاللغة مثلاً) والرموز (صور شخصية كصور الأحلام) تشير إلى تحكمه بعالم الأشياء. كما يبدأ الطفل بتكوين تصور عن ربط الذات رمزياً بكلمات مثل «أنا» و «لي»، يربط بها اسمه وكنيته. في هذه المرحلة يتوقع الأبوان، إضافة إلى الوفاء لهما كأشخاص، وفاء للرموز التي يمثلانها. فالأبوان يظهران التزاماً بكمية الوقت والاهتمام الذي يبذلانه في تربية الطفل. والأطفال يرصدون بدقة مقدار الوقت الذي يمضيه الأبوان معهم ومن أجلهم.

تشكل ولادة أخ أو أخت أزمة في عقد الوفاء ـ الالتزام لأن الحمل وولادة أخ أو أخت يشتت التزام الأبوين بشكل واضح. والواقع أن نظرة واحدة على المنافسة الأخوية وآثار ترتيب الطفل بين أخوته على شخصيته تؤدي إلى التفكير في تأثيرات الأخوة على عقد الوفاء ـ الالتزام.

وعندما يصل الطفل إلى عمر المدرسة يكوِّن عالماً من القوانين، كما يكوِّن مفهوماً «قانونياً» لذات تضع القانون وتتبعه وتخرقه. ولابد للمفهوم الأبوي للوفاء من التوسع ليشمل هذه البنى الجديدة، ويُقاس وفاء الطفل الآن بمدى التزامه بالقوانين. وعندما يكذب الطفل في سن المدرسة ويأخذ أشياء ليست له،

يغضب الأبوان لأنهما يريان في هذه التصرفات خروجاً عن الوفاء لهما. وكما يتوقع الآباء من الأبناء الوفاء للرموز التي يمثلانها، فإنهما يتوقعان من أبنائهما وفاءً للقوانين (من قيم ومعتقدات) التي يعتنقانها.

وعندما يصل الناشئون مرحلة المراهقة، يصبحون قادرين على مستويات أعلى من الفكر ومفاهيم جديدة عن العالم وعن الذات. والعالم الجديد الذي يتكون عالم إيديولوجي أي أن الناشئين يفتتنون به، وقادرين على التعامل مع أفكار مجردة. إلا أنهم يبنون أيضاً مفهوماً للذات الانعكاسية التي تستطيع أن تفكر بنفسها، كما بأفكار الآخرين. وليس مستغرباً أن أنواع الوفاء التي يتطلبها الآباء تتغير أيضاً. فالآباء يريدون من الناشئين وفاء لمعتقدات وقيم الآباء إضافة إلى الوفاء لهم كأفراد، لرموز العائلة، وللقوانين الأخلاقية. فالآباء قد يعتبرون إقامة علاقة مع شخص من جماعة دينية أو عرقية غير مقبولة من قبل الأسرة، مثلاً، مؤشراً بعدم الوفاء.

والقدرة التي يكتشف المراهق وجودها لديه ببناء مثل وأوضاع مناقضة للحقيقة يولد في بعض الأحيان أزمة في عقد الوفاء - الالتزام بالطريقة التالية: يكون المراهق صورة لآباء نموذجيين مثاليين في كل شيء. ثم يقارن هذا الوالد المثالي بوالده الحقيقي فيجده مختلفاً بشكل محزن من ناحية مظهره، وطريقة لباسه، وتصرفاته الشخصية، وما إليها. هذا الانتقاد يراه الآباء نقصاً في الوفاء.

وكثيراً ما يشعر الناشئون الذين استعجل نموهم بنقص في التزام أبويهم، ويكونون أكثر ميلاً لانتقادهم من الأطفال الذين لم يستعجل نموهم. وقد يشعر الأطفال المستعجلون أن أبويهم أكثر التزاماً بحياتهم الخاصة وعملهم وصداقاتهم مما هم ملتزمون تجاه الطفل المستعجل. وعندما يبلغون مرحلة المراهقة لا يشعر الناشئون بأي حاجة إلى الوفاء لآبائهم كأشخاص ولا للقيم والمعتقدات التي يحملونها. وعندما يشعر الناشئون أن آباءهم قد أخلوا بعقد فإنهم لا يشعرون أنهم ملزمون بالوفاء بالالتزام المتبادل من جهتهم.

وحري بمجموعة من الأنداد، أو عصبة شباب، أو اعتناق نظام قاس، كأن يصبح الناشئ نباتياً، أو ينضم إلى كنيسة مختلفة عن كنيسة الأبوين، أن يملأ الفراغ الذي يخلفه التخلي عن قيم ومعتقدات الأبوين. فالسلطة التي تكون لهذه البدائل على الناشئ تتناسب تماماً مع إحساسه بمدى تخلي أبويه عن التزامهما تجاهه. وإحدى الآثار السلبية الإجمالية لاستعجال نمو الأطفال هو ما يلحقه من أذى بعقد الالتزام ـ الوفاء. وعلى الرغم من أن الأذى ربما يحدث في مرحلة الطفولة، لكن تبعاته لا تظهر إلا في مرحلة المراهقة.

هذا وصف وجيز لأنواع الحقائق التي أعتقد أن الوالدين وأطفالهما يشيدونها مع تقدم عملية الحياة والنمو معاً وجنباً إلى جنب. إنها مجرد إطار ننظر من خلاله لنرى كيف نعلّم أطفالنا أن يكونوا اجتماعيين. فأنّى لطفل كان على أحد جانبي عقد

الحرية ـ المسؤولية والإنجاز ـ الدعم والالتزام ـ الوفاء أن يصبح على الجانب الآخر من العقد عندما يصبح في موقع الوالد؟ على الرغم من أن الاقتداء بنموذج سلوك الأبوين قد يقدم جزءاً من الإجابة، إلا أنه لا يحيط بالموضوع كله، لأن العقود تتألف من سلسلة طويلة من التوقعات الضمنية التي ربما لن تقتبس بشكل مباشر والتي توصل بطرق معقدة ودقيقة. والاقتداء أبسط من أن يقدم إجابات عن التحولات الدقيقة التي تطرأ.

ويبدو لي أنه لابد من العودة إلى أنماط التفاعل الشخصي أثناء الطفولة والمراهقة لنجد الجواب. فالعلاقات مع الوالدين تميل لأن تكون أحادية الجانب طالما توقع الوالدان تصرفاً مسؤولاً مقابل ما يقدمانه من حريات. والأطفال ليسوا في موقع يخولهم أن يطلبوا من والديهم التصرف بمسؤولية، كما أنهم لا يمنحون الحريات لأحد. ومن هنا يستبعد أن يتعلم الأطفال جانب مسؤولية الوالدين في العقود بمجرد الاقتداء بتصرفاتهما.

وأعتقد أن الأطفال يتعلمون الجانب الآخر من العقود مع أطفال آخرين ومع الأخوة. وهنا تتصف العلاقة بالنضج، وهي ليست أحادية الجانب. ومن خلال اللعب والعمل مع الأطفال الآخرين، يستطيع الناشئون أن يبدأوا بتوقع تصرفات معينة مقابل امتيازات معينة. في مرحلة الطفولة غالباً ما تكون مكافأة التقيد بالعقود هي القبول الشخصي فالطفل الذي يُظهر استعداداً للالتزام بقواعد اللعب يسمح له باللعب. ومع الأنداد يتعلم

الأطفال الطبيعة التبادلية للعقود وكيف تكون في الجانب المعطي كما تكون في الجانب المتلقي.

يتضح هذا أكثر في مرحلة المراهقة عندما تتشكل الصداقات القوية الملازمة. في هذه الصداقات يستطيع الفرد تمييز العقود التي تتخذ من التبادلية أساساً. ففي الصداقات الحقيقية، مثلاً، يدعم كل صديق إنجازات الآخر. وفي فريق كرة القدم أو الهوكي، يعانق الجميع اللاعب الذي يحقق الهدف الرابح، لكنهم يعانقون أي لاعب فعل ذلك. وهذا مثال واضح عن دعم الإنجاز المتبادل.

يتجلى الالتزام والوفاء في الصداقات الحميمة. فيظهر الالتزام من خلال العمل على بناء العلاقة والحفاظ عليها بالبقاء معاً، ويظهر الوفاء بالدفاع عنها إزاء كل من يحاول فسخها. بالطريقة نفسها ينصح الأصدقاء بعضهم بعضاً في تصرفاتهم، وفي المسؤوليات الكامنة وراء حريات معينة. وبهذا فإن الصداقات أثناء مرحلة الطفولة والمراهقة بالغة الأهمية في تحقيق الكفاءة الراشدة، وخاصة في التعامل مع علاقات حميمية كالزواج والأبوة.

خرق العقود والاستعجال

تطرقت حتى الآن إلى وصف ما يحدث عادة في الأُسر التي تعيش في ظل والدين يبقى أحدهما في البيت جزءاً من الوقت أو كله. أما في الأُسر المعاصرة حيث يخرج الوالدان

إلى العمل أو حيث تعيش الأسرة مع أحد الوالدين دون الآخر فإن التقدم المنتظم للتعلم يتغير. ففي تلك الأسر لا يتعلم الأطفال الأدوار المتبادلة عبر صداقات المراهقة وإنما بفعل متطلبات الظروف والضغط الوالدي. وتعتبر مطالبة الأطفال بأداء دور تبادلي في التعاقد أقوى آلية يَستعجل بها الآباء أطفالهم.

وتطرأ بعض التجاوزات التعاقدية التي تشجع الاستعجال في الأسر ذات الوالدين عندما يخرج كلاهما إلى العمل. قد تمنح تلك الأسر الأطفال حريات معينة ـ كأن يُحضّروا لأنفسهم طعام الإفطار، أو أن يختاروا ملابسهم بأنفسهم ـ قبل أن تظهر عليهم بوادر تصرف مسؤول في هذه المجالات، مثل اختيار الطعام المغذي وارتداء ثياب ملائمة للطقس. وقد لمست بنفسي عدم استعداد بعض الأطفال لممارسة هذه الحريات عندما طلب إليّ أن أرى فتاة صغيرة في الثانية جلبت لغذائها أكواز بوظة فارغة وكانت ترتدي صديرياً وبنطالاً قصيراً في منتصف شتاء الشمال الشرقي القاسي.

كما أن الوالدين العاملين يتوقعان في بعض الأحيان إنجازات أكبر من مقدرة الأطفال الصغار، وقد يكون طلب الإنجازات في المجال الاجتماعي من أكثر الطلبات حرجاً. فبعض الأطفال يمكن أن يطالبوا بالتكيف مع ثلاث أو أربع أجواء اجتماعية مختلفة في اليوم نفسه ـ مدرسة الحضانة، ومركز للرعاية النهارية، وجليسة أطفال. هذا الطفل يلقى دعماً

لإنجازات تتطلب مستوى من النضج الاجتماعي ومقدرة على التكيف لا يملكها سوى قلة من الأطفال الصغار.

أخيراً، قد يقدم الأبوان العاملان أحياناً على تجاوز عقد الالتزام ـ الوفاء إذ يتوقعان من الأطفال وفاءً بالمعنى الراشد للكلمة. وقد شهدت مرة الحدث التالي في أحد مراكز الرعاية النهارية: أتت أم عاملة لتصطحب ابنتها (بيني) وهي في عامها الثالث، نحو الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر. كان يوماً متعباً في مركز الرعاية النهاري تميز بأزمة عاطفية تلو أخرى. تابعت (بيني) نشاطها على الرغم من الفوضى المحيطة بها. وعندما وصلت والدتها، كانت بيني تجلس قرب إحدى العاملات في الرعاية النهارية. وبمجرد أن رأت والدتها تعلقت بعنق العاملة كمن يتشبث بروحه وبدأت تشهق بالبكاء العنيف.

شعرت الأم طبعاً بالذعر والإحراج. ذعرت لأنها على الرغم من الالتزام الذي كانت تشعر أنها تبديه من خلال عملها، كي تؤمن لابنتها حياة أفضل، إلا أن الابنة لم تبدِ أي وفاء. كما شعرت بالحرج لأن ابنتها بدت وكأنها تفضل راشداً آخر عليها، كما بدا الأمر وكأنها قد فجرت نوبة عاطفية بالنسبة لابنتها بمجرد حضورها. من خلال حديثي مع الوالدة حاولت أن أفسّر أن (بيني) لا يمكنها بحال من الأحوال أن تقدر عملها من أجل رفاهة الأسرة، وكل ما فهمته الطفلة هو أن أمها تتركها لفترات طويلة من الزمن. أما بالنسبة للنوبة العاطفية التي تعرضت لها (بيني)، فقد جاء توقيتها بالطريقة التي لا تريدها الأم. فعندما

رأت (بيني) أمها أطلقت عواطفها وعبرت عن الخوف والغضب والقلق الذي كانت تكبته طوال النهار. ولمجرد أن شعرت بالأمان بحضور والداتها ـ وهو أصدق اختبار للوفاء ـ سمحت لنفسها بتلك النوبة العاطفية.

واضح أن الأسر التي يعمل كلا الوالدين فيها قد وجدت لتبقى، في المستقبل القريب على الأقل. ويجب ألا يؤخذ أي شيء مما قيل هنا بمعنى أنه يدافع عن بقاء أحد الأبوين في البيت ليعتني بالأطفال. ولكن متطلبات عمل الوالدين يجب ألا تعمينا عن محدوديات الأطفال الكامنة من حيث المسؤولية والإنجاز والوفاء. وإذا رتبنا حياتنا وحياة أطفالنا على أن لا يعطوا حريات غير ملائمة، ولا يطالبون بإنجازات تتجاوز حدودهم، ولا تفرض عليهم طلبات بالوفاء المطلق غير المشروط، فإن الوالدين يستطيع كلاهما العمل دون أن يستعجلا نمو أطفالهم.

مشكلة تعاقدية أخرى تطرأ أحياناً في البيوت التي تنعم بظل الوالدين، غالباً ما تتعلق بالبنات، وأحياناً بالصبيان. يحدث عادة وضع كهذا: بينما تكبر الفتاة قد يكون الوالدان ديموقراطيين تماماً ويعطيانها حريات إلى الحد الذي تظهر معه إحساساً بالمسؤولية. وهذا قد يتضمن استخدام مواد التجميل وارتداء ثياب لمصممين مشهورين في عمر مبكرة، وهكذا تشعر الفتاة أنها تكبر بسرعة وتحظى بدعم أبويها وتشجيعهما في هذه العملية.

ولكن عندما تصبح الفتاة في سن المراهقة، تنضج فيسيطر الرعب على بعض الآباء لدرجة تجعلهما يغيران أساليب تربيتهما تماماً ويصبحان مستبدين بعد أن كانا ديموقراطيين. بغض النظر عن مدى إحساسها بالمسؤولية في تصرفاتها. تشعر الفتاة أن هذا خرق تعاقدي لأن الحرية كانت، حتى هذا الوقت، تمنح على أساس الإحساس المثبت بالمسؤولية. والآن فجأة، ودون أي نقاش، يصبح العقد النسبي غير المطلق عقداً مطلقاً بلا ضوابط. والمشكلة، في الحقيقة، عامة أكثر مما صورناه في المثال المدرج أعلاه، وتشكل إحدى الشدات الرئيسية التي يعاني منها الأطفال المستعجلون. وكثير من الناشئين الذي اعتادوا ارتداء ملابس كالكبار والتحدث مثلهم يشعرون غالباً بالإحباط في مراهقتهم لأن النضج الذي يفرض عليهم كأطفال نضج محبط ومعيق. ولما كان المراهقون اليوم أنشط مما كانوا في الأجيال الماضية، فإنهم ما زالوا ممنوعين، بالقانون، من التدخين والعمل، قبل أن يبلغوا السادسة عشرة في الأقل. ويشجع الآباء والمؤسسات الاجتماعية الأخرى الأطفال على الإسراع في النمو وعلى التصرف والظهور بمظهر الراشدين، ولكن عندما يصبح هؤلاء الناشئون مراهقين يطلب إليهم أن ينسوا كل ما مروا به وأن يتحدثوا ويتصرفوا كالأطفال. والشدة الحقيقية الناجمة عن استعجال نمو الطفل هي أنها تترك الناشىء غير مستعد لدخول أرض المراهقة الوعرة المسالك.

العقود في الأُسر التي تعيش في ظل أحد الوالدين

قال عالم الاجتماع الراحل ايرڤينغ غوفمان Erving Goffman من جامعة بنسلڤانيا إن السلطة توجد دائماً في بنية منظمة القيادة فيها متدرجة أو هرمية أو متسلسلة. في الأسر التي تحظى بوجود الوالدين يكون الترتيب واضح المعالم: الوالدان يمارسان القيادة والأطفال يتبعون. فالوالدان يقرران المسؤوليات التي تعطي حريات، والمنجزات التي تستجر الدعم، والوفاء الذي يستحق الالتزام. بتعبير أصح، معظم القرارات تتخذ من قبل الأبوين، حتى عندما يطلبان مشاركة أولادهما[8].

أما البيوت التي تستظل بأحد الأبوين دون الآخر فهناك، بالضرورة، شرخ في هذه البنية. وذلك لأن الممارسة الفاعلة للسلطة تتطلب نوعاً من الدعم. عندما يعيش الوالدان معاً ضمن الأسرة فإنهما عادة يدعم أحدهما الآخر، ويستطيعان مناقشة القرارات، وتجريب بعض الأفكار الممكنة، وهكذا. لكن ذلك غير ممكن في الأسرة التي تعيش في كنف أحد الوالدين فقط: فليس هناك من تعمل معه ويقدم لك الدعم والتشجيع.

في هذه الحالة يلتفت كثير من الآباء الوحيدين إلى أطفالهم من أجل الدعم. وهذا من الناحية العملية يعني إعادة كتابة العقود بما يجعل الأطفال شركاء كاملين. وهذه طريقة مألوفة جداً لاستعجال الأطفال، في حين أنها بحد ذاتها كفيلة بإثارة قدر فائض من الشدة يتعرض لها الناشئون.

وغالباً ما تُعاد كتابة العقود في البيوت التي تعيش في كنف أحد الوالدين فقط في مجال الحرية ـ المسؤولية. فالأطفال، مثلاً، قد ينغمسون بشكل مبالغ فيه في ممارسات أبويهما في الخروج مع شخص من الجنس الآخر. فإذا عادت الأم، مثلاً إلى البيت في وقت متأخر جداً تبدو عليها آثار الكحول أو الانشراح، فإن الأطفال قد يبدون معارضة لخروجها مع ذلك الرجل ثانية. وإذا عاد الوالد بأحد الأصدقاء لإمضاء الليلة في البيت فإن الأطفال يحددون المسؤولية التي يعالج بها ذلك الوضع الحرج قبل موافقتهم على تكرار ذلك الحدث.

كما يبدأ الأطفال بالمشاركة من موقع المساواة في عقد الإنجاز ـ الدعم. فالأم التي تخرج إلى العمل مجدداً بعد بقائها في البيت سنوات تربي أطفالها قد تحصل على دعم ملحوظ من أطفالها، الذين يستمعون إلى ما ترويه لهم عن رئيسها وزملائها في العمل، ويساعدونها في أعمال المنزل من تنظيف وطبخ وعمل في الفناء. كما يدعم الأطفال أمهم في قراراتها باتباع دورات، والإقلاع عن التدخين، واتباع نظام حمية، وما إليها. في جميع هذه الأمثلة يقوم الأطفال بأداء دور داعم يقوم به الزوج عادةً.

أخيراً، قد يساهم الأطفال من منطلق المساواة في عقد الالتزام ـ الوفاء. كما يحدث عندما يبدأ أحد الوالدين بالخروج مع شخص من الجنس الآخر بما يشكل خطراً على الوفاء للأطفال. في الأسرة التي تعيش في كنف الوالدين لا يخضع

أمر وفاء الوالدين للمساءلة لأن الراشدين هُما الأبوان البيولوجيان وهذا يفرض نوعاً من الوفاء الآلي. ولا تشكل مشاعر الود التي يكنها أحد الوالدين للآخر أي خطر يتهدد الوفاء، بما أن الوالدين مرتبطان بيولوجياً بالأطفال. ولكن عندما تخرج الأم مثلاً بصحبة رجل لا تربطه بالأطفال أي علاقة بيولوجية فإنه قد يشكل خطراً يتهدد الوفاء لا يشكله الأب البيولوجي أبداً. لأن الرجل الجديد لا يربطه بالأطفال أي رباط بيولوجي، وتعلق الأم به قد يعتبر انسحاباً من الوفاء، بينما يعتبر تعلقها بالأب البيولوجي دليلاً على الوفاء.

بالتالي فإن الوفاء الوالدي لا يمكن أن يعتبر أمراً مسلماً به في الأسرة التي تعيش في كنف أحد الوالدين دون الآخر، ويصبح الأطفال في موقع تقديم الالتزام مقابل الوفاء الأبوي. والأطفال المراهقون، مثلاً، قد يقترحون البقاء في البيت أو الذهاب إلى السينما مع والدهم إذا كان يخرج بانتظام مع امرأة لا يحبونها. في هذه الحالة يبدي الأطفال استعداداً لإظهار الالتزام، وإعطاء وقتهم وطاقتهم لإسعاد والدهم، مقابل بادرة وفاء تجاههم.

وبهذا فإن أولاد البيوت التي يُظلُّها أحد الوالدين دون الآخر يشجعون على النمو السريع لأنهم يوضعون، بالضرورة، في دور تبادلي فيما يتعلق بالعقود. فمن شأن الراشدين منح الحريات رداً على إظهار المسؤولية، وتقديم الدعم رداً على الإنجاز أو إظهار الالتزام مقابل الوفاء. وإذا كان للطفل العمل بهذه الطريقة فلابُد له من محاولة التصرف كراشد خبير.

والأطفال لا ينجحون دائماً في ذلك. ولكنهم في هذه الحالة يدفعون إلى التصرف كالأزواج وفي هذا ضغط لاستعجال بلوغهم الرشد.

التعاقد التبادلي والاستعجال

إن عملية اكتساب مهارات تعاقدية تبادلية طبيعية قد تضعف أيضاً لدى الأطفال الذين استعجل نموهم، لأن أولئك الأطفال غالباً ما يكونون «خارج السرب» بالنسبة لأندادهم. لأن الأطفال المستعجلين يتوقع منهم، سواء بشكل إرادي أو لا إرادي، أن يكونوا «متقدمين» على أندادهم في المهارات الثقافية والاجتماعية، وهم غالباً ما يميلون إلى المنافسة والتركيز على الذات في علاقاتهم بأندادهم. قد يتبنى هؤلاء الناشئون الموقف الأحادي الجانب الذي يتخذه الراشدون حيال التعاقد مع أندادهم. فهناك فتاة مراهقة جميلة أعرفها هيئت منذ صغرها لتكون طبيبة. اجتمعت بشاب أعجبها، إلا أن العلاقة لم تُعمّر طويلاً. فقد كانت تتوقع منه أن يخرج برفقتها مهملاً فروضه الدراسية، ولكن إذا كان لديها هي بعض الفروض الدراسية فقد كانت ترفض مرافقته وتغضب لطلبه صحبتها. هذه الشابة، التي استعجلت منذ الصغر، لم يكن لديها إحساس بتبادلية العقود، وكانت تعامل ندها كما لو كان طفلاً.

كثيراً ما يعاني الناشئون الذين استعجل نموهم من المشاكل في معرفة نوع التعاقد المناسب. ففي الكلية، مثلاً، قد يُقدم هؤلاء الناشئون على انتقاد أحد الأساتذة لأشياء مثل عدم إعطاء

درجات الامتحان مباشرة، على الرغم من أنهم لا يقدمون أعمالهم في أوقاتها المحددة. على الأستاذ أن يكون مسؤولاً، أما الطالب فليس كذلك. في مجال العمل يكره هؤلاء الأشخاص أن يُقال لهم ما يترتب عليهم عمله، أو كيف يتصرفون، وكأن صاحب العمل يعتمد على دعمهم في تحقيق إنجازه وليس العكس. وفي العلاقات الزوجية، حيث التبادلية ضرورية، كثيراً ما يتصرف أولئك الشباب بشكل أحادي ويطالبون بالإنجاز (كغسل الأطباق، أو تنظيف البيت) مقابل الدعم ولكن دون أن يشعروا أن عليهم أن يقدموا شيئاً بالمقابل (كدفع الفواتير، أو التخلص من القمامة).

من هنا نرى أن استعجال الأطفال لا يؤدي إلى خرق العقود فحسب وإنما يضعف فهم الأطفال لما هو لائق في العقود الأحادية والتبادلية. قد يتخذ الأطفال المستعجلون موقفاً سلطوياً مستبداً إزاء الأنداد والأصدقاء في مواضع غير لائقة، أو يتخذون موقفاً تبادلياً في المدرسة أو في العمل، وهو أيضاً غير لائق. ولأنهم يواجهون صعوبة في معرفة الوقت الملائم للتعاقد الأحادي أو التبادلي كثيراً ما يبدو الناشئون وقحين أو لا يتحلون بأخلاق حميدة. ففهم بنية العلاقات الإنسانية هو جوهر الأخلاق الحميدة. وتعبير mal eleve بالفرنسية (أي سيء التربية) إهانة لا يمكن توجيه أسوأ منها لطفل. السيء هو أن كثيراً من الأطفال المستعجلين، الذين يبدون أخلاقاً سيئة، يمكن القول إنهم سيؤو التربية، لم تحسن تربيتهم.